قصّة النبي يونس عليه السلام

جميع الحقوق محفوظة لمؤسسة الكلمة © 2020

www.alanbiya.org

مدخل إلى قصّة النبيّ يونس (عليه السّلام)

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾
[سورة القلم: 48]

جاء ذكر النبي يونس بن أمِتاي (عليه السلام) أربع مرات باسمه في القرآن (سورة الأنعام والنساء ويونس والصافات) وأيضا بلقب "ذو النون" (سورة الأنبياء) ولقب "صاحب الحوت" (سورة القلم). وتدلّ كلمة نون على الحوت الكبير. وانحدر النبي يونس من قرية فلسطينية صغيرة تقع بضعة كيلومترات عن الناصرة في اتّجاه الشمال في الجليل.
ومن أهمّ العبر التي تتضمّنها قصّة النّبي يونس تلك التي تبرز أنّ رحمة الله تشمل جميع النّاس لا سيّما الوثنيّين وأعداء قومه. وورد أمر الله للنّبي يونس في هذه القصة، بأن ينطلق إلى مدينة نينوى الواقعة في بلاد الرّافدين وينذر أهلها بالهلاك الذي سيحلّ بهم. وكانت نينوى عاصمة للإمبراطوريّة الآشوريّة القويّة. ودمّرت هذه المملكة سابقا مملكة السّامرة الشّمالية لبني يعقوب كما غزت مدينة القدس. ورأى النّبي يونس شأن بقيّة شعبه أنّ أعداءهم يستحقّون الهلاك.
ويذكر الطّبري في تاريخه أنّ علماء المسلمين يختلفون في تعريفهم لفعل النّبي يونس ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [سورة الصافّات: 142، وسورة الذاريات: 40] إذ يقول: "وقد اختلف السّلف من علماء أمّة نبيّنا محمّد ﷺ في ذهابه لربّه غاضبا وظنّه أن لن يقدر عليه وفي حَيْنِ ذلك".
وقال نبيّ الإسلام عن النّبي يونس حديثا في هذا الشأن: "لا يقولنّ أحدكم أنّي خير من يونس" (صحيح البخاري، 4: 55: 608). وربّما اعتبرت عشائر العرب أنّ نبيّ الإسلام خير من النّبي يونس بسبب محتوى الوحي الذي ذكر أنّ يونس هرب ممّا وُكّل إليه. ورأى بعض الدارسين أنّ محمّدا نطق بهذه

الكلمات لكي يأمر تلك القبائل ألاّ يميّزوا بين الأنبياء.
وكان في نينوى في العراق مقام للنّبي يونس، ويقال إنّه دُفن فيه، واحترمه المسلمون والمسيحيون على حدّ سواء. وللأسف دمّرت قوى داعش هذا المقام، ودمّرت معه الجامع المحاذي له سنة 2014.
ويذكر سيّدنا عيسى المسيح (سلامُهُ علينا) النّبي يونس بقوله إنّ آية النّبي يونس التي هي مكوث في بطن الحوت ثلاثة أيام بلياليها إنّما تشير إلى سيّدنا عيسى الذي سيبقى ثلاثة أيام بلياليها مدفونا في الأرض (انظر الإنجيل، متّى 12: 39-40). ويقارن السيّد المسيح بين توبة شعب نينوى عند إنذار النّبي يونس لهم وبين رفض بعض قوم السيّد المسيح التوبة على يديه، في حين أنّه أعظم شأنا من النّبي يونس (انظر الإنجيل، متّى 12: 14 ولوقا 11: 29-32).

باسم الله تبارك وتعالى

قصّة النبيّ يونس (عليه السّلام)

النبي يونس ودعوة الله له[٩]

أوحى الله إلى النبي يونِس بن أمتّاي وقال: "يا يونس اذهب إلى نِينَوى، المدينة العظمى، وأخبر أهلها بأنّي سأدمّرها تدميرا، إنّي كنتُ بما يقترفونه من شرور سميعا بصيرا".

غير أنّه (عليه السلام) ذهب في غير طريق مدينة نِينَوى، لأنّه ظنّ أنّ الله لا يقدر عليه.[١] ودخل مدينة يافا ولحق بسفينة توشك على الإبحار، لا إلى نينوى، بل في اتجاه مدينة تَرشِيش. ودفع الأُجرة وصعد على متنها.[٢]

وأبحرت السفينة، وبعد فترة من إبحارها أرسل الله عليها ريحًا شديدةً، تحوّلت إلى عاصفة عنيفة كادت أن تحطّم السفينة. وخاف البحّارة على حياتهم، ومن شدّة ذعرهم استصرخوا آلهتم التي يعبدونها، وألقَوا بشُحنة السفينة في البحر حتّى يخفّفوا من حُمولتها، أمّا يونس (عليه السّلام) فكان، قبل العاصفة، في جوف السفينة مستغرقًا في نوم عميق. ولمّا عثر عليه ربّان السفينة صرخ في وجهه قائلاً: "ما بالك يا رجل؟ كيف تغرق في نوم عميق؟! هيّا استغث ربّك لعلَّه يشفق علينا فلا نكون من الهالكين!" وصعد يونس (عليه السّلام) على متن السفينة، واتّفق البحّارة على إلقاء قُرعة بينهم،[٣] ليعلموا مَن السبب فيما أصابهم من بلاء. ووجدوا أن القرعة تشير

---

(٩) استنادا إلى كتاب النبي يونس 1: 1-16.

(١) انظر سورة الأنبياء: 87.

(٢) انظر سورة الصافات: 140.

(٣) كان الوثنيون يعتمدون طريقة رمي القرعة في بعض الأحيان لقراءة الغيب وطلب الإرشاد من آلهتهم.

إلى النبي يونس،[٤] فتحلّقوا حوله وواجهوه بأسئلتهم: "أأنت السبب في حلول هذه العاصفة الهوجاء علينا؟ ماذا تفعل بيننا؟ من أين جئتَ؟ وما هي بلادك؟ وإلى أيّ شعبٍ تنتمي؟" فأجابهم: "إنّي رجل عبرانيٌّ مِن عباد الله وهو ربّ العالمين، خالق البرّ والبحر. وأنا هارب في هذه السفينة ممّا كلّفني الله به". عندها استولى عليهم رعب شديد وقالوا له متعجّبين: "كيف فعلتَ ما فعلتَ؟!" وازداد البحر هيجانا والموج علوّا فألحّوا عليه قائلين: "ماذا ترانا بك فاعلين حتّى تتوقّف هذه العاصفة الهوجاء؟!" فأجابهم يونس (عليه السّلام): "ارموني في البحر كي يتوقّف هيجانه. إنّي على يقين أنّ هذه العاصفة الهوجاء حلّتْ عليكم بسببي".

ولم يطيعوه، وشرعوا يُجذّفون لعلّهم يصلون إلى برّ الأمان، وازداد البحر في الهيجان، وعجزوا عمّا أرادوه، فاستنجدوا حينها بالله قائلين: "اللّهمّ، لا تُهلِكنا إن ألقينا هذا الرجل في اليمّ وكان بريئا! إنّ كلّ ما حلّ بنا قضاء منك، وما نحن برادّيه!" وألقوا بيونس (عليه السّلام) في اليمّ، وفي الحال حلّ في البحر السكون! فهاب الرجال جبروت الله وقدّموا له أضحية إكرامًا له تعالى، وأوفوا بكلّ النّذور التي نذروها إليه.

دعاء النبي يونس[٥]

وأرسل الله حوتًا عظيمًا فالتقم النبي يونس (عليه السّلام)، وبقي ذو النون في بطن الحوت ثلاثةَ أيّام بلياليها.[٦]

ودعا النبي يونس ربّه مِن بطن الحوت[٧] قائلا:

"ربّاه دعوتُك في محنتي كئيبا
فكنتَ لدعوتي قريبًا مجيبًا!
وإنّي للخلاص من دركات الموت بك أستعين

---

[٤] انظر سورة الصافات: 141.

[٥] استنادا إلى كتاب النبي يونس 1: 17، 2: 1-10.

[٦] انظر سورة الصافات: 142.

[٧] قارن سورة الأنبياء: 87.

وأنت يا ربّ لصوتي سميع عليم!
طرحتَني ربّي في لجج بلا قرار،
وغرقتُ بأمرك في عمق البحار.
فأحاطت بي المياهُ العظيمة
وغمرتني الأمواجُ المركومة.
وظننتُ أنّي محروم من فيضك الجليل
وتساءلت كيف أصل إلى بيتك المقدّس ذي التبجيل
وإنّي أكاد أختنق من سيل المياه؟
لأنّ الغمر أحاط بي من كلّ ناحية واتجاه،
وعشبُ البحر غمر رأسي غمارا.
فغرقتُ حتّى وصلتُ دركات الأرضِ في أصول الجبال
هناك أُغلِقتْ عليّ إلى الأبد مَزاليجها والأقفال.
إلاّ أنّك اللّهمّ يا ربّ البرايا
نزعت عنّي حبال المنايا!
وقد شارفتُ على الممات
فتضرّعتُ إليك يا منّان
وبلغ دعائي إلى بيتك الأسمى!
إنّ كلّ مَن يعبد الأوثان
يتخلّى عن وفائه لله.
أمّا أنا فسأقدّم لك القرابين
وسأكون لك من الحامدين
وسأُوفي بكلّ ما نذرتُهُ لك.
إنّك وحدك يا ربّ واهب النجاة!"

وبعدما أنهى يونس (عليه السّلام) دعاءه، أمر الله الحوت، فقذفه إلى الشاطئ.[٨]

---

[٨] يقول الطبري في تاريخه استنادا إلى حديث عن هذا الحدث: "قال: فسبح وهو في بطن الحوت، قال: فسمعت الملائكة تسبيحه، فقالوا: يا ربنا، إنا لنسمع صوتًا ضعيفًا بأرض غريبة. قال: ذلك عبدي يونس، عصاني فحبسته في بطن الحوت في البحر، قالوا: العبد الصالح الذي كان يصعد إليك منه في كل يوم وليلة

توبة أهل نينوى[٩]

ثمّ أوحى الله إلى يونس (عليه السّلام) من جديد: "يا يونس اذهبْ إلى نينوى، المدينة العظمى، وبلّغ أهلها بما يوحى". فانطلق النبي يونس في الحال إلى مدينة نينَوى خاضعًا لأمر الله، وكانت مدينة عظيمة يقضي الرجل في الطوّاف بها ثلاثة أيّام. فدخل النبي يونس إلى المدينة، وبعد أن تجوّل في ربوعها يومًا كاملاً نادى جموع الناس: "أيها الناس اسمعوا لي وأنصتوا! لم يتبقَّ على دمار نِينَوى إلاّ أربعون يومًا!" فآمن أهل نِينَوى برسالة الله، وقرّروا أن يصوموا جميعًا ويلبسوا الخيش كبارًا وصغارًا ندمًا وتوبةً.

وعندما بلَغت رسالة النبي يونس ملك نينَوى، قام عن عرشه وخلع عنه حُلّته الملكيّة ولبس بدلها خيشًا وجلس على الرماد.[١] ثمّ أصدر مع رجال حاشيته بيانًا وأمر أن ينادَى في أرجاء نِينَوى: "لقد أمرنا جلالة الملك وحاشيته أن نصوم جميعًا! إنّ الأكل والشراب ممنوعان، وينسحب هذا الأمر على المواشي والدواب! وليلبس البشر وحتّى المواشي والدواب خيشًا، وليتضرّع الناسُ إلى الله بكلّ صدق، تائبين عن سلوكهم الشرير وعن كلّ عنف ارتكبوه، لعلَّ اللهَ يرحمنا ويمتنع عن معاقبتنا فلا نكون من الهالكين".

وعندما تابوا عن سيئاتهم وعن سلوكهم الشرير، عفا الله عنهم وتاب عليهم ولم يُنزل عليهم البلاء الذي توعّدهم.[٢]

النبي يونس يرفض رحمة الله على أعدائه[٣]

واستاء النبي يونس استياءً شديدًا لأنّ الله أنزل رحمته على أهل نينوى، فأخذ الغضب منه كلّ مأخذ.[٤] ثمّ نادى ربّه وهو كظيم: "يا ربّ، عندما كنت

عمل صالح! قال: نعم، قال: فشفعوا له عند ذلك. فأمر الحوت، فقذفه في الساحل." انظر *تاريخ الرسل والملوك*، ط 2، (بيروت: دار التراث، 1387هـ)، ج 2، ص 16.

[٩] استنادا إلى كتاب النبي يونس 3: 1-10.

[١] انظر مقال "العادات الشرقية واليهودية القديمة" في هذا المجلد.

[٢] انظر سورة الصافات: 147-148.

[٣] استنادا إلى كتاب النبي يونس 4: 1-11.

[٤] انظر سورة الأنبياء: 87. يقول الطبري والقرطبي في تفسيريهما لهذه الآية إنّ البعض يقول عن يونس

في بلادي كنت أعلم أنّك سترحم سكان نينَوى إذا هم تابوا! فرأيتُ أن أهرب إلى مدينة تَرشيش، لأنّي كنتُ على يقين أنّك يا الله رحمنٌ رحيمٌ، طويل الإمهال، توّابٌ حليم. والآن ربّي خذني إليك فالموت أهون عليّ مِن رؤية أعدائي يُرحمون!" فأوحى الله إليه: "بأيّ حق تحتجّ على ما أفعل؟"

واتّجه النبي يونس إلى شرق مدينة نينوى، وأقام هناك مظلَّةً وجلس تحتها، يَرقُب ما سيصيب المدينة. وأنبت اللهُ شجرة يقطين، ونمت وامتدّت أوراقها فوق رأس النبي يونس تظلّله من حرارة الشمس وتخفّف ممّا في قلبه من هموم.[٥] ورضي (عليه السّلام) عن هذه الشجرة كلّ الرضا. ولكن عند فجر اليوم الموالي أمر اللهُ دودةً فقرضت شجرة اليقطين فيبست. ولمّا أشرقت الشمس أرسل الله ريحًا شرقيّة تلفح الوجوه، فنزلت حرارتها على رأس يونس (عليه السّلام) فأصابه الإعياء، فتمنّى الموت قائلاً: "إنّ الموت أرحم لي من هذه الحياة!"

وأوحى اللهُ إلى يونس (عليه السّلام): "بأي حقّ تغضب على موت شجرة اليقطين؟" فأجاب النبي يونس: "إنّ لي الحقّ كلّ الحقّ في أن أغضب، حتّى الموت، على ما أصابها!" فأوحى الله إليه (عليه السّلام) من جديد: "لقد نبتت شجرة اليقطين في ليلة ثمّ ماتت في ليلة، وإنّك عليها لرؤوف حنون رغم أنّك لم تتعب في العناية بها ولم ترعَها! فكيف لا أرحم مدينة نينَوى العظمى بسكانها المئة والعشرين ألفا أو يزيدون، مع كلّ بهائمها؟ إنّ أهلها في عماهم يتخبّطون لا يعرفون طريق الشمال من طريق اليمين".[٦]

إنه "ذهب مغاضبا" بسبب عصيان قوم نينوى، بينما يقول آخرون إنه غضب عندما رفع الله عذابه عن نينوى بعد أن توعّد به، إذ تابوا إليه تعالى. الطبري، جامع البيان، تحقيق أحمد ومحمّد شاكر، مؤسّسة الرسالة، 2000، ج 18، ص 511 وما بعدها؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصريّة القاهرة، 1964، ج 11، ص 329 وما بعدها.

[٥] انظر سورة الصافات: 146.

[٦] يخبرنا الطبري في تاريخه فيقول: "ثم رجع ذات يوم إلى الشجرة فوجدها قد يبست، فحزن وبكى عليها، فعوتب فقيل له: أحزنت على شجرة، وبكيت عليها ولم تحزن على مائة ألف أو زيادة أردت هلاكهم جميعًا!" انظر الطبري، التاريخ، ج 2، ص 15.